رحلة الى شمالي لبنان

لحضرة القس انطونيوس شبلي اللبناني (تابع)

٣ دير سيدة ايليج (ميفوق) ووادية

غادرنا دير كفيفان بعد ان قضينا فيه ثلاثة ايام الى دير سيدة ميفوق الذي يبعد عنه نحو ساعتين ونصف ساعة. وهذا الدير قديم الاجيال متقادم العهد. لكنَّ كرّ العصور وصروف الحدثان وتوالي الاضطرابات والنكبات على البلاد لم تترك لنا من تاريخه سوى النزر القليل. قد سكنهُ في سالف الزمن البطاركة والرهبان العبّاد ثمَّ هجروه بسبب ما نالهم من العسف والجور ومظالم الحكّام الذين أنزلوا ببلاد جبيل والبترون كل ضروب المغارم والفواجع فاضطرَّ من نجا من اهاليه الى النزوح عنه الى بلادٍ لا تُرهق فيها الارواح ولا تنزل بساحتها النوازل والخطوب. وقد ألمع المؤرخ العلّامة الشهير البطريرك اسطفان الدويهي الى هذه الحوادث الدامية في تاريخه المعروف

ولمَّا قبض الامير يوسف الشهابي على زمام الحكم هالهُ ما رأى من الخراب والدمار الذي حلَّ بالبلاد وحار في اعادة اهاليه اليه وتوطيد الامن والراحة في ارجائه. فاشار عليه مدبّرا شؤونه الشيخان الحكيمان سعد الخوري وسمعان البيطار الماروناتيان ان لا سبيل الى الفوز بأُمنيَّته الّا باقامة الرهبان اللبنانيين فيه وتملكهم خرائب الاديار والكنائس. فاستصوب الامير رأيهما واستدعى رئيسهم العام الاب اقليموس المزرعاني ومنّاكه بموجب حجّة مؤرخة سنة ١١٧٩ هجرية الموافقة ١٧٦٥ مسيحية خرائب اديار سيدة ايليج وحوب وكفيفان وانطوش جبيل وقسماً من املاك الحكومة اللبنانية الاسلامية

فسكن الرهبان هذه الاديار ونشطوا الى عمارها والاعتناء بجراثة اراضيها ولم تزحزح عزيمتهم عن الاستقرار في هذه الاماكن المعارك والاهوال التي تصادفوها. وما درى بهم الموارنة حتى عادوا الى مواطنهم مستأنسين بجوارهم متكلين على مساعدهم

فعمرت القرى على تتابع الايام واهلت الديار بسكانها وتوطّد حبل الامن والراحة .

وقد اطلعنا على ما كتبهُ الاب يوسف غودار اليسوعي عن دير ايليج ووادييه وهو فصل شائق رأينا تعريبهُ لفوائدهِ قال :

« وادي ايليج قائم في خفضةٍ من الارض بين تلالٍ مستديرة تذود عنه عجمات الرياح الشمالية والجنوبيَّة . ويتفتّح الشرق امامهُ عن شبه مذبحٍ طبيعي تصلهُ بالافق درجات الآكام . وقد زيّنتهُ الطبيعة بنضارة المروج والمياه الغزيرة فلا يخشى جفاف الاراضي التي تطرّقهُ من كل ناحية ولا جدب للتربة لان الينابيع تنساب اليها فتنمي الشجر والنبات وتُكثر نتاج الارض

وبالقرب من الوادي جنوباً جلس دير ميفوق الجميل كملكٍ على عرشهِ لابساً حلّةً قشيبةً بيضاء . كأنَّ آجرَّهُ كُتَلٌ من الزمرُّد على كُدسٍ من الثلج وهو يبتسم للبحر من أروقتهِ الغربيَّة ذات العواميد البيضاء . كالمرمر وتطوّقهُ البيوت والاشجار الباسقة والطرق المتشعّبة

« وعند رأس الوادي وراء ستار من الحور والصفصاف والجوز يرى الناظر قبّة جرسٍ صغيرة خيَّم عليها السكوت قائمة على حجارةٍ قديمة تكتنفها الاعشاب وقد انسلَّ بعضها اليها . وعلى قيد أذرع منها اطلال دارسة . وبقايا سلالم واروقة تقادم عهدها وشهدت وقائع شتى دامية حدثت في ذلك المكان . وجنوبيها حوض واسع ثمَّ جسر صغير يُعبر عليهِ الى مغارة ينبثق منها ماء بارد زلال وهي المعروفة بمغارة سيدة ايليج

« يجلس الزائر هناك منفرداً كأنهُ في قفرٍ مع ان الحياة لا تبعد عنهُ إلَّا خطوات . فلا يسمع إلَّا خرير الماء وحفيف الشجر وتغريد العصافير ونقنقة الضفادع ، ولا يشمّ إلَّا بالنسيم البليل يلمس وجههُ ويداعب اغصان الحور والجوز . واذا ما رفع بصرهُ الى العلاء يرى ذاتهُ بين اكمات شهباء تحرسها الاشجار المتنوّعة ، ولا يقف إلَّا على سماء صافية مستديرة مستكنَّة كأنهُ في وكنةٍ محصَّنة لا مخرج للنفس والاعين منها إلَّا لتستقرّ على بساط الرقيع . ولقد يخيل اليه ان لا حياة في ذلك الموضع ولا قلب ليختلج . ولكن اذا ما مكث مدَّةً مراقباً يرى قلوباً تضطرب وجوارح تتحرَّك ووجوهاً يلمع عليها بريق المسرَّة . لان بين تلك الانتفاض مزار سيدة ايليج حيث

تلتهب الحياة والعجائب انسياب الماء من المغارة بحرسهُ احد الرهبان . لان ذلك المكان مشهور عند الوارنة وله ماض مجيد ويحيونهُ حبهم لقديسين

« هناك سكن البطاركة سنين عديدة وقاسوا امرّ العذاب بالقرب من العذراء لان حول ذلك المعبد وفي تلك الزاوية التي يخال زائرها ان هدوءها ما عكّرهُ اضطراب قد سُمعت قعقعة السلاح وشُوهد بريق الالسنة وتفجرت الدماء واتقد اللهيب حتى انهُ ما وُجد قط في لبنان إلّا امكنة قليلة كانت حالتها اكثر اضطراباً وصعوبة من ابليج

« ان تاريخ ابليج غامض وسبب هذا الغموض كثرة الاقاصيص التي تناقلتها الالسنة ولا رابطة جليّة تربطها . وتقلبات الحوادث أثّرت عليها حتى اصبحت لحمتها بعيدة المنال

كتب احد السيّاح : ان ابليج كانت هيكلًا للزهرة ثمّ جُعلت كنيسة لمريم باسم سيّدة الطهارة (١

وكتب جبرائيل القلاعي في الجيل الخامس عشر : ان هذه الكنيسة (معبد ابليج) قد شيّدها الرسولان بطرس وفيلبُّوس (٢

« وامّا التاريخ فترتقي آثاره الى بداية الجيل الثاني عشر . والاوراق الكثيرة المحفوظة في الدير والكتابتان المرقومتان على جدران الكنيسة تبيّنان قدمية المعبد(٣ وبحسب

---

(١) قال الاب شامبون (في الرسالات الكاثوليكية ١٨٦٩ ص ١٢) : ان جمال موقعها (ابليج) وبنايتها وكثرة الخرائب التي تكتنفها تذكّرنا باحد الهياكل القديمة ولكن ما من أثر يثبت ذلك

(٢) كتب جبرائيل القلاعي اسقف قبرص سنة ١٥٩٣ الى مواطنيهِ اهل لحفد : « ان ايمان الكنيسة الرومانية كان ايمان ابائنا ووطننا منذ شيّد بطرس وفيلبُّوس كنيسة السيدة بالقرب من لحفد . » وبحسب التقليد ان بطرس فيلبُّوس هما الرسولان

(٣) احداهما باللغة السريانية موجودة فوق احدى الطاقات . والثانية باللغة السريانية ايضاً ولكنها بالخطّ اسطرنجيلي فوق باب المعبد

ترجمة الاولى : « باسم الله الحي الازلي سنة ١٢٦٦ مسيحية قد رُمّم هذا الهيكل الاخوان الكاهنان عمّون وبانيلا وقد كان شيّدهُ البطاركة بطرس وارميا ويعقوب ويوحنا سنة ١٠٢٠ »

ترجمة الثانية : « باسم الله الحيّ الازلي سنة ١٥٨٨ يونانية (١٢٧٦ م) قد تمّ (هنا رسم

التقليد ان البطاركة الموارنة رغبةً في الاقتراب من الصليبيين القاطنين السواحل البحرية تركوا انجاد يانوح المرتفعة سنة ١١٢٠ وهبطوا الى وادي ايليج وهناك بنوا او رمّموا ديراً على انقاض معبدٍ قديم لمريم العذراء (وربما كان هذا المعبد من اصل بيزنطي) يُكرمهُ الاهلون على ما يظهر. لان المركز البطريركي اتخذ حالاً اسم «دير مقدس لسيدة ميفوق القديسة مريم»

«وفي سنة ١١٢١ سكن ايليج البطريرك بطرس (١ الذي كان راهباً وحبراً ساذجاً وفقيراً يتمّم (ما عدا ثوبه الرهباني) بالعمامة المخملية ويلبس الانسجة الزرقاء والبطرشيل الرقيق وصليب الصدر تميزاً له عن سواه. واما بطانته من رهبان واساقفة فكانت تشتغل بنسخ الكتب وحراثة الارض وادارة الامور الزمنيّة. وقد كتب احد هؤلاء الرهبان في ختام نسخةٍ:

«انا الراهب الفقير المسمّى سمعان قد كتبتُ هذه الاسطر في هذا الكتاب لابينا البطريارك بطرس بطريرك الموارنة الساكن في دير ميفوق المقدس في وادي ايليج من معاملة البترون»

«وبعد قرنٍ ونصف اي سنة ١٢٧٦ جُدّد بناء الدير. وهذا يتضح من الكتابة الاسطرنجيليّة الجميلة الموجودة فوق الباب:

«باسم الله الحي الازلي سنة ١٥٨٨ يونانية قد انجز عمار دير ام الله مريم صلوا قربا معنا امين (٣»

«وفي هذا التاريخ اضحى تقدُّم الموارنة محسوساً. فبعد ان تملكوا بلاد البترون

صليب في طرفه الكتابة السريانية: بك نضرب اعداءنا وبأسك نطأ مبغضينا بارحمنا) بناء دير أم الله صلاحا تحفظنا امين ' يد الرجال الخطأة داود . د . . والقديس بارس ويوحنا.»

١) هو «بطرس» المذكور في الكتابة السريانية الدير الاسطرنجيلية

٢) السمعاني (المكتبة الشرقيّة ج ١ ص ٣٠٧) سنة ١٤٣٢ يونانية (١١٢١م)

٣) ان بطاركة الموارنة الذين فقد التاريخ آثارهم يظهرون في ميفوق قرب البترون وهم: يعقوب ودانيال الحدشيتي ولوقا البنهراني وسمعان ويوحنا وجبرايل حجولا . . . (المجمع اللبناني سنة ١٧٣٦ جزء ٣ ق ٦)

وجبيل انتشروا في المقاطعات البعيدة نحو قبرس والقدس فبنوا في كل مكان كنائس وغيرها. وهذا يظهر من الصور المرسومة على الجدران والكتابات وحجارة النيشان.

• على انَّ هذا الامان لم تطل مدَّتهُ فكان اشبه بضياء يوم جميل عقبتهُ ليلة مظلمة. دُحر الصليبيون فما كادوا يغيبون عن بلادنا حتى صفرت زوابع الاضطهاد على خلفائهم الجبليين الامناء. فغزا المماليك لبنان مرَّتين وأوقفوا توسع الموارنة فأجبر هؤلاء على التقهقر الى الاماكن المرتفعة. وشرع بطاركة ميفرق ينظرون الى مضايق تُؤرزين وجبل الميحال

• وفي سنة ١٣٦٧ اغتاظ سلطان مصر شيبان اشرف من ملك القدس بطرس اللوزنياني الذي انتزعت منه الاسكندريَّة فسيَّر عسكرًا جرَّارًا على مملكة ارمينية الصغيرة فاجتاحت العساكر الاسلاميَّة لبنان الذي كانت تتهمهُ بمساعدة الفربيين. وهبطت كتيبة من المماليك بغتةً الى ايليج اذ كان الشعب يحضر القداس الالهي فذُبح الرهبان والبطريرك عند قدمي البتول. ولم يكن هذا البطريرك إلَّا جبرائيل حجولا الذي يحسبهُ الموارنة شهيدًا (١ فانتقل خليفتهُ داود يرحنا الى فجاج حردين

• وفي سنة ١٤٠٤ عاد البطريرك يرحنا الحاجي الى سيدة ايليج لانه كان يحبُّ مزار البتول كثيرًا وقد ارسل غرفتهُ الى المعبد بسأم لم يزل حتى اليوم لتسهل عليه ممارسة اعمال الرياسة. غير انهُ بعد مدَّة قليلة أُجبر على الهرب

• وسنة ١٤٣٧ أرسل من قبلهِ الى مجمع فلورنسا فرا جوان رئيس الفرنسيسكانيين في بيروت فعاد بعد ثلاث سنين حاملًا الى البطريرك درع التثبيت ورسالة من البابا اوجانيوس الرابع. فسرت كتبة من اللبنانيين الى ملاقاته بعظمة وجلال فايقظت هذه الآبهة وساوس السلطان التي سعيد ظاهر الجكمك واوغرت صدرهُ على الموارنة

• وكان المسلمون يعتقدون ان البابا هو المحرك للحروب الصليبية وان في المجمع الذي عُقد في فلورنسا ابرامًا لعقد محالفة جديدة لمحاربتهم. ولما علموا ان البطريرك قد ارسل مَن يمثلهُ في المجمع تلقَّى حاكم طرابلس امرًا من السلطان بارسال كتيبة من الجنود الى ايليج لتقبض على البطريرك. لكنَّ العناية الالهية لم تسمح بان

---

١) عن تاريخ لبنان المخطوط للاب مرتينوس (صفحة ١٣١)

يُفجع الوارثة برئيس ديرهم فعرف البطريرك بما حُبيَ له فالتجأ الى مغاير قنوبين الحصينة. غير ان عددًا وافرًا من الرهبان والقرويين ذُبحوا وذُكر العبد (١ . وبعد المماليك قام الاتراك

• سنة ١٦٠٧ قد جليت ثورة جنبلاط باشا وفخر الدين العساكر العثمانية الى لبنان فجعلت كلَّ شيء طعامًا للنار ولاسيما الاديرة وطافت انهار الدماء. فنادر الرهبان ميفوق حيث احتلَّ عدد من عرلاء الضواري مدَّة خمسة اشهر دنَّسوا في خلالها كنيسة العذراء بفظاعة وقحة لم يسبق لها مثيل. وما جلوا عن ميفوق حتى رُمّمت ايليج وازهرت وجعل المتاولة الجاديين حكَّامُ البلاد ميفوق مركزًا لحكومتهم. وقد كانوا يحترمون بيت مريم. وكان احدهم الشيخ حسن يكرم البتول اكرامًا خاصًا لاعتقاده انها خلَّصت حياتهُ في احدى المعارك. ثمَّ في معركة اخرى كان الدروز قد اوشكوا ان يطوّقوا المتاولة فهرع عرلاء الى سيدة ايليج ونذروا لها قطعة ارض فامتدَّ فوقهم ضبابٌ كثيف واخفى انسحابهم (٢

• لكنَّ ثورات الجاديين المتواصلة جرَّت الى ايليج عساكر الاتراك والدروز بنوعٍ متواصل. ففي سنة ١٦٨٦ دُمّرت قرية ميفوق ونُهب دير البتول ودُكّت بعض جوانبه (٣ ولم تزل مع ذلك تلك الام معزيةً ومداويةً وناشرة ألويةً نصرها العجيبة. واما اليوم فقد سكنت الزوابع واستتبَّ الأمن فنُقل الدير القديم الى مكانٍ آخر غربيّ سيدة ايليج يبعد عنها زهاء عشرين دقيقة وهو يتمتَّع بحياة التقى والسكينة والخشب. لكن العذراء مكثت فوق حارسة الخرائب القديمة محافظةً على ماضي المكان المجيد الذي أدخل في طي النسيان. فترى الى يومنا هناك مغترَّة الثغر في صورتها حاملةً يسوع بين ذراعيها تكتنفها السلاسل الصغيرة والقلائد والتيجان ونجد النذور وقد بُيّضت

---

١) ان الجثث دُفنت في حفرة العبد (المجمع اللبناني . . . الدويهي ١٤٤٠ . الدرّ المنظوم — الشدياق : أسر لبنان قسم ٣ فصل ١ و ٢ — مرتينوس ص ٤٣٣

٢) عن تاريخ لبنان المخطوط للاب مرتينوس

٣) الدويهي سنة ١٦٨٦ — الشدياق في المحل المذكور . — ولم يرمَّم العبد إلَّا سنة ١٧٦٦ كما جاء في الكتابة السريانية

جدران المعبد وكُتبت عليها مدائح عربية بخطّ ازرق ضخم (١

«ان هذا الاصلاح اعطاها هيئة الشبيبة والحياة التي يقف الطرف عندها حائرًا. وخارج المعبد اخربة قديمة قد امتدّت اليها الاعشاب والدغل. وما فتئت حتى اليوم مزارًا يهرع اليه المؤمنون إمّا طلبًا لنعمة من السيدة وإمّا شكرًا لها على منة نالوها لها

«ومن المعروف عند اباء الرهبانية اللبنانية ان هذه الكنيسة لم تزل كما كانت سنة ١١٤٠ اذ عاش فيها بطاركة الوارثة ودُفنوا فيها هم مع عدد وافر من الرهبان. فجدرانها ترشح بدموعهم وتردّدُ صدى صلواتهم. وكل عابر سبيل يدخلها خاشعًا. واهل الجوار يسرعون اليها ليتضرعوا اولادهم فيها ويطلبوا نعم الخلاص من العذراء مريم. ولدى كلّ متافرة او خلاف يأتون فيحلفون امام السيدة. فهي بركة البلاد وينبوع الخيرات. ولا طبيب للفقراء غيرها. وهي ما تركت ولن تترك ذلك المكان

«ففي سنة ١٧٦٥ اراد رهبان دير ميفوق ان ينقلوا صورة مريم الى ديرهم فذهبوا الى معبد سيدة ايليج بخشوع وانحنوا واخذوا الصورة وقفلوا الباب بالمفتاح. وفي اليوم الثاني عادت الصورة من تلقاء ذاتها الى مكانها الاول

«وسنة ١٨٦٣ صدمت كتيبة تركيّة الى ميفوق متعقّبة يوسف بك كرم ظانّة انه هناك فيمّمت مفرزة منها كنيسة السيدة فربط جندي جواده بباب الكنيسة تصد اهانتها. وشرع آخر يشرب متكئًا على بارودته مجدّفًا على العذراء (٢ فالاول رفسهُ الجواد فسقط على قفاهُ. والثاني انفجرت بارودته فاصاب الرصاص رأسهُ فمات الاثنان في وقت واحد امام المعبد.»

هذه هي النبذة المستطرفة التي كتبها عن دير سيدة ايليج حضرة الاب يوسف غودار اليسوعي في كتابه (العذراء في لبنان) وقد استند في تاريخها الى روايات السمعاني والدويهي وطنوس الشدياق والبطريرك بولس مسعد الخ (٣ وقد حضر

---

١) داخل المعبد مسطح بستة امتار طولًا وعشرة عرضًا. والجدران مؤلف من ثلاث حنايا صغيرة. واما الجدران فشخينة جدًا ويظهر انها قد قاومت هجمات التدمير الكثيرة

٢) ان هذه الحوادث وكثيرًا غيرها وُجدت مدونة في كتابات قديمة خطية

٣) طالع كتابهُ (La Sainte Vierge au Liban, page. 256-265)

بنفسهِ الى دير السيدة ونقل ترجمة الكتابتين المترشتين على جدران كنيستها كما رأيت في الحواشي . امّا الكتابة المحفورة فوق باب الكنيسة الغربي فقد ذُكرت في تاريخ الطائفة المارونيّة للدويهي (ص ١١٢و١١٣) بغلط ظاهر وذلك انّ الدويهي لمّا اثبتها في تاريخهِ لم يتحقّقها بنفسهِ او عسُت عليهِ قراءتها لعلوّها فقرأ ܡܥܡܘܕܝܬܐ بدلًا من ܥܘܡܪܐ فتشوّش المعنى . وتبعهُ في هذه القراءة كل من نقل عنهُ حتى رنان في كتابهِ رحلة فينيقية (Mission de Phenicie, p. 254) . فهذا هو نصّها الصحيح الذي انتبه اليهِ المرحوم القس اوغسطين الخوري القرطباوي الراهب اللبناني وكتب في ذلك رسالة ازال فيها كلّ شبهة . ودونك الكتابة مع تصحيحها :

ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܠܥܠܡ . ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܚܡܫ ܡܐܐ ܘܬܡܢܝܢ ܘܬܡܢܐ ܠܝܘܢܝܐ ܐܬܒܢܝ ܥܘܡܪܐ ܗܢܐ ܕܝܠܕܬ ܐܠܗܐ ܡܪܝܡ ܕܬܗܘܐ ܨܠܘܬܗ ܥܡܢ ܥܠ ܐܝܕܝ ܓܒܪܐ ܚܛܝܐ ܕܘܝܕ ܩܫܝܫܐ ܘܦܛܪܘܣ ܘܝܘܚܢܢ

اي «باسم الله الحي للدهر . في سنة الف وخمسمائة وثماني وثمانين لليونان بُني هذا دير والدة الله مريم لتكن صلاتها معنا على ايدي الرجال الخطأة القس داود وبطرس ويوحنا»

والسنة اليونانيّة ١٥٨٨ توافق السنة المسيحية ١٢٧٦ . وفي وسط الكتابة بعد كلمة « ܠܥܠܡ » نُقش صليب ✝ حوالهُ بالمربانية : « ܒܟ ܢܕܩܪ ܠܒܥܠܕܒܒܝܢ ܘܒܫܡܟ ܢܕܘܫ ܠܩܝܡܝܢ ܥܠܝܢ » اي « بك نقهر اعداءنا وباسمك نطأ مبغضينا »

وكان الدويهي لقراءتهِ ܡܥܡܘܕܝܬܐ قد عرّبها « قد كمُل معموديّة هيكل والدة الله » واستنتج منها انّ البطريرك يعقوب هو الذي شيّد الهيكل وسكن دير سيدة ايليج لكنهُ بقي مرتاباً في شخصيّة يعقوب (اطلب سلسلة البطاركة ص ٢٦) . وجاء ذكر البطريرك يعقوب في دير سيدة ايليج في كتابة اخرى محفورة فوق عتبة نافذة الكنيسة الشمالية وهذا نصّها كما نقلهُ العلّامة المطران يوسف الدبس (الجامع المفصّل ص ٢٠١ والخوري ميخائيل غبريل في تاريخ الكنيسة الانطاكية (٢ : ٢٠٧ـ٢٠٩)

ܒܫܡ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܩܝܡܐ . ܒܫܢܬ ܐܠܦ ܘܫܒܥ ܡܐܐ ܘܐܪܒܥܝܢ ܘܫܬ ܐܬܚܕܬ ܒܢܝܢܐ ܕܗܢܐ ܗܝܟܠܐ ܒܝܕ ܐܚܐ ܟܠܡܫܐܢ ܐܡܘܢ ܘܡܝܫܠ ܗܘܘ ܕܝܢ ܒܝܘܡܬܗ ܦܛܪܝܪܟܐ ܦܛܪܘܣ ܘܐܪܡܝܐ ܘܝܥܩܘܒ ܘܝܘܚܢܢ ܒܫܢܬ ܐܠܦ

اي باسم الله الحيّ الدائم . في سنة ١٧٤٦ جدّد بناء هذا الهيكل أخوان كلمشان امون وميشلا وكان قد انشأهُ اربعة بطاركة بطرس وارميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١ م .

(لها بقية)